

تاريخ الإرسال: 2017-10-04

تاريخ القبول: 2018-05-02

حسن المقال في فن المقام عند البشير الإبراهيمي

د. أم السعد فضيلي

جامعة برج بوعريج

الملخص:

لنثر الإبراهيمي في المقام طابع خاص مواضعا ولغة وأسلوبا، إذ رغم هيبة المقام وتفرده دخل منه الإبراهيمي ليخرج بمقام يخصه وحده ، مطوعا لمكوناته ومتصرفا في هندسته فارضا عليه سلطة لغته الرصينة المنتقاة وبث الغريب منها، وهيمنة أسلوبه ببلاغته وإحاطته بالسجع والجناس والتقابل...في صنعة بهيجة تؤدي بذلك غرضه وغرض المقامة منذ بدأت، وملوحا بحسه الخطابى ومبتغاه الاصلاحى، فجعل بطله الفقيد ابن باديس ومجلسه القبر وجمهوره صاحبين يحاورهما يبيث لكافة الناس من خلالهما ما به من لوعة الفقد وألمه، ومتقلتا من عنصر الكدية والاحتتيال معوضا لهما بأجواء الحزن والبكاء من جانب والتماسك والحذر من جهة أخرى من أجل مواصلة رسالة البطل الفقيد، فحسن مقاله في مقامه.

الكلمات المفتاحية: المقامة، البشير الإبراهيمي.

الملخص بالإنجليزية:

despite the prestige of the denominator and its uniqueness from the income out of the denominator is his alone, adapted to its components and acting engineered authority imposing his discreet and strange broadcast selected ones, and the dominance of his style, his eloquence and his briefing of assonance and alliteration and meet

... In making this purpose and lead joyful purpose built since I started, waving my rhetorical tradition and liberate their reformist, make the deceased heroine ibn Badis and his tomb and his audience all telecasts people converse with them boyfriend-girlfriend through the heartbreak of loss and pain, and run away from a (alkedia) and fraud are reimbursed with grief. Crying by cohesion and caution on the other in order to continue the deceased hero message to give Good article in the Act.

إن قلنا مقامة فيتبادر إلى الذهن ذلك السحر الهمداني الذي جرّ الأذواق إلى احترام هذا الفن، واعتماد مادته ومكوناته بطريقة مرنة طيعة لكل موقف، وفي كل مكان وأن، ذلك الفن المكوّن من توليفة القصة والسرد والوصف والحوار والشعر والجد والفكاهة، فالعجيب والجميل في المقامة أنها تستوعب كل الفنون: الرسالة والخطابة والمقالة والقصة والمسرحية والرحلة وأيضا المنامة، فتلقّفها كل هذه الخيوط بألوانها المختلفة لتنسج قطعة جميلة، تتقبلها الأذواق، وتستوعبها الأفهام، ويركبها الأدباء لتوصيل الرؤية وتفرغ الأقلام مما تحمله من أثقال... وقد شهد العصر للهمداني بإبداعه ولقبوه ببديع الزمان، إذن لا غرابة، وقد سن سنة تقتضي الاختلاف في التعبير.... وتختلف بكل المقاييس عن النثر الفني السردى بكل أنواعه وتتميز عليه، وجرت بها الأقلام عبر السنين والعصور الموالية .

وقد تلقّف النثر الجزائري هذا الفن - فن المقامة- منذ القديم (منذ الوهراني في القرن الثاني عشر ميلادي)، غير أنها مع الشيخ محمد البشير الابراهيمي في عصرنا هذا عرفت روحا أخرى، بعد أن جثم عليها طويلا التقليد المثقل، واللفظ المستهلك، والسجع المبتذل، وسطحية الطرح للموضوع، وتفكك البناء، وارتباك العناصر .

والسؤال: كيف كانت المقامة عند الابراهيمى؟ وما سرّ استعادة سحرها من جديد بعد قرون من الضعف على مستوى الموضوع واللغة؟ فكيف كان مقاله في المقامة، وهل حافظ على أركانها دون إرباك للمحتوى: كيف كان مجلسه، ومن هم أبطاله، وما هيئة الراوي عنده؟، هل وجد عنصر الكدية فيها؟ ما سر البلاغة وراقي الذوق المعجمي في مقامته رغم وجود الصنعة اللفظية في أساليبه؟

باختصار ماذا أضاف الشيخ الإبراهيمى إلى فن المقامة؟ والإجابة عن هذه الأسئلة لا تكون إلا بالوقوف على مقامة الإبراهيمى وقفة متمعنة في الموضوع، والهيكل، والمبنى واللغة.

لما كان النثر الجزائري الحديث قد تلقّف الكثير من التراث العربي ولم ينقطع عنه، وخاصة في الأشكال التي ظهرت منذ القديم، فإنه من الطبيعي أن يكون شكل المقامة في هذا النثر، وأن يكتب الأدباء الجزائريون مقامات أدبية بصرف النظر عن مستواها الفني، فهذا الفن في الجزائر له كينونة، وقد تلقفه الأدباء الجزائريون بعناية .

وإذا كان فن المقامة من الفنون التي تناولها الأدب العربي منذ القدم (القرن الرابع الهجري)، فإن الأدب الجزائري لم يعرف هذا الفن إلا مع القرن السادس الهجري، فحضرت المقامة في الأدب الجزائري منوها بنماذج متعددة، وبأحجام مختلفة، محتوى وأسلوباً، ولغة حسب الفترات المتلاحقة، كما أنه كان من الطبيعي أيضاً أن يطوّعوا هذا الشكل لأفكار جديدة تناسب العصر، وأن يوظفوا المقامة وظائف جديدة تتجاوز الوظيفة التقليدية لها.

إن وبالأكيد كان للجزائريين حظ من هذا اللون الأدبي النثري، فقد أشع قبس المقامة في الأدب الجزائري في وقت مبكر مع كاتب برع في هذا

اللون، وهو (محمد بن محرز الوهراني) الذي أجاد وأبهر فيها وكانت الأكثر توهجا وألقا...⁽¹⁾

ويقول الدكتور عمر بن قينة عن المقامة في الأدب العربي الجزائري: إنها "تكشف عن حيوية الكلمة الأدبية في الجزائر، ورغم ظروف الانحطاط والضعف ثم الهوان الذي لحق الوطن والأفراد... فلم تمت الكلمة الأدبية، ولا اندثر النص الأدبي المتوهج في أكثر من حلة... فكانت الوظيفة عموما تاريخية فكرية سياسية ثقافية اجتماعية ترفيهية تراوح فيها البناء الفني بين التقليد والتجديد...⁽²⁾.

وبعد الحرب العالمية الأولى أدى ازدهار المقالة في النثر الجزائري الحديث وانتشار الصحافة إلى تنشيط فن المقامة لتحمل بقالها المتميز الموضوعات والقضايا الهامة، فيلمع علم في الأدب الجزائري، هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مقامته التأبينية للإمام ابن باديس، والتي نشرت فيما بعد بجريدة (البصائر) العدد 76 سنة 1949م، وقد حذف منها الكثير بسبب تضيق الاستعمار الذي أحكم قبضته أكثر من ذي قبل بعد أحداث ماي 1945م، لذا أسماها الإبراهيمي (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة)

فمقامات العصر الحديث تختلف بكونها تناقش ظروفًا راهنة وتنتهي بوصول الكاتب إلى نتيجة معينة حسب الموضوع الذي تحويه المقامة، وقد كان ظهور فن المقامة في الجزائر بشكل عام نتيجة لظروف سياسية واجتماعية خلفها الاستعمار الفرنسي وسياسته الجائرة في حق الشعب الجزائري، ودخول الفرد الجزائري في صراع إيديولوجي بين الحفاظ على الهوية الوطنية بجميع

¹ - ينظر: الوهراني، مناماته ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان، محمد نغش مراجعة عبدالعزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص 1-2.

² - ينظر: عمر بن قينة، فن المقامة في الأدب العربي الجزائري، دار المعرفة، الجزائر، 2007.

رموزها الدين واللغة والوطن، أو الانطواء تحت لواء الثقافة الغربية التي كان غرضها الأساسي المساس بالرموز الوطنية .

والمقامة كفن نثري تصف مشاهد الحياة ومشكلاتها بأسلوب فيه الحركة التمثيلية القصيرة، وإن غلبت عليها الصنعة اللفظية والصفة البلاغية، تتقوّلب في مجموعة عناصر أهمها الراوي وسلاسته، والبطل وخوارقه، والشخصيات وأحداثها والمُكدي والعقدة والحل، يطوف حولها مجال من السخرية والاحتيال، تطعم بالشعر وديدها السجع والغريب من اللفظ الذي يحييه الكاتب فجأة ويبث فيه الحركة من جديد، غير أنها عبر العصور وحسب افرزات كل عصر قد تخلت على ملامح واكتسبت ملامح أخرى، يتصرف الكاتب في هيكلتها كما يشاء حسب الموضوع، فحدث تطور واضح في مقامة القرن العشرين، من زاوية الرؤية الاجتماعية، والفكرية، والاصلاحية، وكذلك المعالجة الأسلوبية ايضاً، مع ارتباطها بظروف العصر، في افرزاته، ونتائجه والموقف من ذلك كله، وهو ما يلاحظ مع الابراهيمي، وهذا تفصيله:

1- موضوع مقامة الابراهيمي: يظهر من العنوان (مناجاة مبتورة

لدواعي الضرورة) أن الشيخ الإبراهيمي كتب مقامته في رثاء الشيخ ابن باديس ليعبر عن قمة الوفاء بالصدقة والأخوة، والاعتراف بالفضل والتقدير لعظمة الرجال في حياتهم ومماتهم. وقد ألف هذه المقامة بعد مرور عام على وفاة ابن باديس، "فقد مات الشيخ ابن باديس في حين كان رفيقه في الجهاد وقسيمه في العلم والعمل محمد البشير الإبراهيمي منفياً في قرية (أفلو) من الجنوب الوهراني، بحيث لم يحضر دفنه، ولم يؤبّنه بكلمة، فعوّض ذلك برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بثَّ فيها حزنه للمصيبة، وصوّر فيها آثارها، ولم تنسه الفجعية ما يجب من النصائح بالثبات، واستمرار السير، ومنها رسالة إلى الأستاذ أحمد توفيق المدني يقول فيها: ...بل كان كالشمس لجميع الناس، وأعتقد أن فقده لا

يحزن قريبا دون بعيد، وإن أقر الناس بقيمة الفقيه وبقيمة الخسارة يفقده للعلم والاسلام لا الجزائر وحدها"⁽³⁾

ولما مضت على موت الشيخ ابن باديس سنة، ورفيقه لا يزال في المنفى، أرسل الرئيس الجليل من منفاه هذه المقامة؛ فأبكت العيون، وجددت الأسى. وهي مناجاة لقبر صاحبه ورفيق دربه وعلامة الجزائريين الشيخ (عبد الحميد ابن باديس) رحمه الله محملة بالعبرات والأوجاع لهذا الفقد. وقد قدم لهذه المقامة تلميذ البشير الأستاذ محمد الغسيري: "ما رأينا في حياتنا رفيقين جمع بينهما العلم والعمل في الحياة، وجمع بينهما الوفاء حين استأثر الموت بأحدهما - مثلما رأينا إمامي النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، رحم الله الميت، وأمد في عمر الحي حتى يحقق للجزائر أمنيتها"⁽⁴⁾، فقد كان بين البشير وابن باديس صداقة حميمة عظيمة قل أن يوجد لها نظير فهما رفيقا الدرب في الجهاد والتربية والتعليم. فبعد المقدمة توصف الأحداث وصفا انتقاليا بسرد وقائع المقامة سردا وصفا مليئا بالتفصيلات للدلالة على أحداثها، وورودها بشكل منظم، وهذه الأحداث هي نافذة لآراء الإبراهيمي وأفكاره.

و"الوفاء قليل في البشر، وأوفى الأوفياء من يفى للأموات؛ لأن النسيان غالباً ما يباعد بين الأحياء وبينهم، فيغمطون حقوقهم، ويجحدون فضائلهم."⁽⁵⁾ لكن الإبراهيمي كان أوفى لأنه واصل المسيرة وتجشم العناء في تحسس الخطى والوفاء بالمبادئ المسطرة لجمعية العلماء المسلمين بعد ابن باديس.

³- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1977، ج2، ص337.

⁴- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الاسلامي، 1997، ج1 ص74.

⁵- نفسه، ج2، ص 427.

2-المجلس: وهو التشكيل الأول لبناء المقامة، ففيه ينضم الجمع لسماع ما يروى وإشراك الحواس في الموضوع المطروح، وكان رسم المجلس واضحا عند الإبراهيمي من المقدمة، فقد استفتح مجلسه بابتدائه بالتحية والسلام وتوجيه الحوار إلى القبر رامزا به إلى ما يحتويه، مشركا بذلك لكل من يسمعه فيتهياً القارئ للوهلة الأولى كأنه سيتلقى خطبة غير أن تحويل الحوار وخلق الشخوص يرمي إلى ملامح القص والنسج فيقول: "سلام يتنفس عنه الأفاق بإزهاره وإبراقه، ويتبسم عنه الصباح بنوره وإشراقه. وثناءً يتوهج به من عنبر الشجر عبيزه، ويتبلج به من بدر التمام على الركب الخابط في الظلام منيره. وصلوات من الله طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان، وتحيات زكيات تنتزل بها -من الملاء الأعلى- الملائكة والروح، ونفحات زكيات تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدّق برهان الحق قولها الشارح بفعلها المشروح... "فهو يصور المكان وهو أمام قبر ابن باديس ويباشر حواراً في أجواء تأبينية: "...سلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صواديق الوعود، لا صواديق الرعود.... وسوافح من العبرات تتحل عزاليها، و لوافح من الزفرات تسابق أواخرها أوليها، على الجذب الذي التأمّت حافتاه على العلم الجم، والفضل العد... وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد ظلال رعايته وتعهده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلمه ومواعظه معمورة" فبهذا السلام أعلن الإبراهيمي افتتاح مجلسه وحدده.

3-البطل: كما كان الإبراهيمي مباشراً في رسم مجلسه كان أيضاً مصرحاً ببطله منذ البداية، وهو الفقيه ابن باديس من خلال قبره فهو حاضر من البداية لا تعتم عليه، أما بطولاته فكانت مناقبه ومواقفه ونضاله واستماتته من أجل الأمة لهذا عمّ الوصف ثنايا المقامة: "يا ساكن الضريح، نجوى نضو طليح، صادرة عن جفن قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يتاوبه في كل لحظة

خيالك وذكراك ... "فينعته بساكن الضريح: "يا ساكن الضريح، أأكني؟ أم انت كعهدي بك تؤثر التصريح؟ انّ بعدك أتعب من بعدك ...وايم الله لقد تلفتت بعدك الاعناق واشرأبت وماجت الجموع واتلأبت، تجت عن إمام لصفوف الأمة، يملأ الفراغ ويسد الثلمة، فما عادت بالخيبة، وصر العيبة". ويسرد صفاته سردا وكأنه يلخص حياة ابن باديس ومواقفه العظيمة في مشهد قصصي محكم : "يا ساكن الضريح متّ فمات اللسان القوال والعزم الصوّال، والفكر الجوال، ومات الشخص الذي كان يسطرّع حوله النقد، ويتطاير عليه شرر الحقد، ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تتقعّع به البرد، وتتحلّى به القوافي الشرد، ولا الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان، مات الرسم، وبقي الاسم، واتفق الودود على الفضل والعلم ، يا ساكنَ الضريح؛ متّ فمات اللسان القوال، والعزم الصوّال، والفكر الجوّال، ومات الشخص الذي كان يسطرّع حوله النقد، ويتطايرُ عليه شرر الحقد؛ ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعّع به البرد، وتتحلّى به القوافي الشُّرد، ولا الذكُر الذي كانت تطنطن به الأنباء، وتتجاوب به الأصداء، ولا الجلال الذي كانت تعنو له الرقاب، وتتخفّض لمجلاه العقاب، ولا الدوي الذي كان يملأ سمعَ الزمان، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان." فبموته مات اللسان الفصيح والفكر النير والعزم المنتد، لكن ما تركه خالد لا يموت ما دامت الدنيا .

"مات الرسم، وبقي الاسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم" فهو المصلح والمقوم والمهيء للخير والبار بأبناء الأمة والمكرّس للقيم الفضلى فيهم لا يختلف حوله اثنان: "وعزاء فيك لأمة أردت رشادها، وأصلحت فسادها، ونفقت كسادها، وقومت منادها، وملكت بالاستحقاق قيادها، وأحسنّت تهيتها للخير وإعدادها، وحملتها على المنهج الواضح، والعلم اللائح، حتى أبلغتها سدادها، وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق، ومثلك من بني

العقائد وشادها؛ أعليت اسمها بالعلم والتعليم، وصيّرت ذكرها محل تكريم وتعظيم، وأشربتها معاني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضيلة فكنت لها نعم الراحم وكنت بها البر الرحيم. "فيناديه من خلال القبر بحسرة بادية: "يا قبر، أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنك احتويت على أمة، في رمّة، وعلى عالم في واحد. فبعد السؤال يأتي الجواب بذكر أوصاف الفقيّد (فهو جوهرة الأمة بل هو الأمة في واحد): "يا قبر، أيدي من خطك، وقارب شطك، أي بحر ستضم حافتاك؟ وأي معدن ستزن كفتاك؟ وأي ضرغامه غاب ستحتبل كفتاك؟ وأي شيخ كشيخك؟ وأي فتى كفتاك؟.. "فهو البحر، والمعدن الثقيل، والضرغام العظيم، والشيخ الجليل، والفتى الوهاج .

وليعطينا صورة لأوصافه يعرج بنا على انجازاته كيف لا وهو من درج على قول عبارة (الرجال أعمال) وتوظيفها في التأريخ لمآثر زملائه من العلماء الأجلاء مستحضرا مواقفهم البطولية وذلك بتسليط الضوء على أعمالهم مستقرا أبعادها الاصلاحية اجتماعيا دينيا وسياسيا ومدى تأثيرها في الفرد الجزائري خاصة، والشعب ككيان مصاب في عقيدته أولا، ثم لغته وحرّيته وكرامته .

"وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت تحت ظلال رعايته وتعّده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلمه ومواعظه معمورة، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر، ونوره الزاهر مغمورة، وعلى جمعيات كان شملها بوجوده مجموعاً، وكان صوته الجهير كصوت الحق الشهير مدوّياً في جنباتها مسموعاً...مشاهد كان يراوحها للخير والنفع، وكانت آفاقها بأنواره مسفرة، ومعاهد كان حادي زمرها إلى السلم، وهادي نزعها إلى الإحسان والعلم؛ فأصبحت بعده مقفّرة...ومدارس، ما مدارس؟ مهّدها للعلم والإصلاح مغارس، وتصبّتها في نور المبطلين حصوناً ومتارس، وشيّدتها

للحق والفضيلة مرابطاً وممارساً". فتستحق إنجازاته أن تحيّا فهو مشيد المشاهد ورافع المساجد وباني المعاهد بحرصه على نشر العلم والنور في أمته .
ولا يفوته أن يلوح بالسلام لكل من ساند الشيخ وكان جنبا إلى جنب معه في مسيرتهم شيوخه وأعوانه من حملة المشعل : "وسلام على شيخه الذي غذى ورّبي، وأجاب داعي العلم فيه ولّبي، وآثر في توجيهه خير الإسلام، فقلّد الإسلام منه صارماً عضباً، وفجّر منه للمسلمين معيناً عذباً.."
"وسلام على إخوان كانوا زينة ناديه، وبشاشة واديه، وكانوا عمّار سامره، والطيب المتضوع من مجامره، والجوارح الماضية في تنفيذ أوامره ."
"وسلام على أعوان كانوا معه بناء الصرح، وحماة السرح، وكانوا سيوف الحق التي بها يصول، وألسنة الصدق التي بها يقول .أبت لهم عزة الإسلام أن يضرعوا أو يذلّوا، وأبت لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلّوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله سبيلاً، وافترق الناس شيعاً فجعلوا محمداً وحزبه قبيلاً."

ويركن البشير إلى قناعة المؤمن حال الضراء معترفاً أن ابن باديس لم يمت بل بلي منه الجسد لا الذكر في التاريخ والعلم الغزير الذي خلفه للأمة :
فلئن ضايقته الأيام في حدود عمره فقد أبقت له منه الصيت العريض، والذكر المستفيض، ولئن سلّبتة الحلية الفانية فقد ألّبسته من مآثر حُلّ التاريخ الضافية، ولئن أذاقته مرارة فقدته فقد متّعته بقلوب أمّة كاملة، ولئن حرّمته لذة ساعات معدودة فقد أسعدته به سعادةً غير محدودة ."

وبهذا البوح يغطي البطل المقصود الهدف المنشود من المقامة، ويزيد السامع حبا فيه وإجلالا لروحه . فخلت التجربة الابراهيمية من البطولة التقليدية في المقامة فقد عوضها بضرب آخر من البطولة، وذلك بتعداد مناقب بطل الإصلاح ومرشد الأمة في زمن الحاجة الشديدة إلى قائد للأمة، جامعا بين

الألم لفقده وبين التماسك والتمسك بطريقه الذي شقه وأضاء به لمن حوله وقت الظلام الحالِك الذي ساد الجزائر

ثم يتقدم الكاتب خطوة نحو نهاية المشهد الموقف مهنا ابن باديس على ما قدمت يداه من باقيات صالحات مطمئنا له في مثواه، إن تلاميذه على دربه سائرون دعاة إلى الحق بين عباده، 'يلقون في سبيله القضى كحالا، والأذى من العسل أحلى' وهي دعوة صريحة وحريصة على التمسك بالمنهج ومواصلة النضال.

قائلا في الختام: "سلام عليك في الأولين وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في الحكماء الربانيين وسلام عليك إلى يوم الدين". هكذا يجعل الابراهيمي قارئه يتجول عبر انجازات البطل ابن باديس، ويقف على حقيقة الرجل.

4- الراوي: لم يتخذ الابراهيمي راويا باسمه لمقامته على غرار ما كان سائدا قبله منذ أيام الهمداني، فالقصة معروفة أنها قصة علامة جليل تفجع الأمة بفقده ويترك فراغا روحيا رهيبا في فترة كانت الأمة تأخذ قوتها من هذا المعين، والإبراهيمي على دراية بأن لا أحد يجهل راويها وهو البشير الإبراهيمي قطب الاصلاح الذي كان يشده قطب آخر هو ابن باديس، فلامح الراوي غير مهمة بالنسبة إليه لأنه يعلم أن كل جزائري يعرف من هو الإبراهيمي بالنسبة لابن باديس فأسند الرواية لنفسه باثا لانفعالاته من خلال الحوار بشكل مباشر يزج بالسامع في موضوعها دون أن يسند الحكى لحاك كما كان الشأن مع الهمداني ومن جاء بعده .

فلم يبتدئ الإبراهيمي أحاديثه بما كان يبتدئ به أصحاب المقامة مقاماتهم من مثال (حكى) أو (روى) أو (حدثني)...بل باشر بعرض أفكاره وتصويرها وتوجيه حواراته دون اتخاذ رواية يروي حديث، لأنه هو راويها.

5-الحوار: وحتى يعطي الإبراهيمي للمقامة بعدها القصصي على أكمل وجه جعل لحواره طرفا آخر متلقيا له ومن ثم ينقل من خلاله ما فاضت به النفس من الم وحزن على الفقيد، مقتفيا أثر الشاعر الجاهلي في جعل صاحبين يتحملان معه المصيبة ويأنس بهما لتخفيف جمرة الحزن عليه، ويرمزان إلى كل جزائري فقد ابن باديس، فيتأسى بهما وكأنه لا يطيق أن يناجي قبر صديقه وحده، فما انفك يدخل هاتين الشخصيتين لتلقي الحوار متخيلا لهما يتهيآن لاستقبال أوامره، وحمل خواطره ، فقال: "بكر صاحبنا فالنجاح في التكبير، وما على طالب التَّجح بأسبابه من نكير، تتجحا لصاحبكما طية، ولا تبلغ الا بشد الرحل وبتقريب المطية، فقد خُتمت -كما بُدئت- الأطوار بدولة الرحال والأكوار" سيرا على اسم الله في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسرة وضاح "

"سيرا روعي فداؤكما، من رضيعي همة، وسليبي من جبة من هذه الأمة، وأتيا العدوة الدنيا، فثم المنتجع والمراد، وثم مناخ المطايا، على حلال الحق، وجيرة الصّدق، وعشراء الخلود الذين محا الموت ما بينهم من حدود، وخصّا القبر الذي تضمن الواعي السميع ، والواحد الذي بذ الجميع" فيتوسل بنكرتين ابدعهما خياله على نحو ما كان يفعل الشعراء منذ خطاب امرئ القيس مرافقين قائلًا :
قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

فيدعو الطيفين الخياليين لينوباه، وينقلا عنه حزنه على رفيع القيمة بعلمه، وعلى البلاد والعباد بعده : "فقولا له علي: يا قبر، عز علي دفينك الصبريا قبر ما اقدر الله أن يطوي علما ملأ الدنيا في شبر. يا قبر ما عهدنا قبلك رما وارى شمسا، ولا مساحة تكال بأصابع الراحة ،ثم تلتهم فلكا دائرا، و تحبس كوكبا سائرا ،يا قبر قد فصل بيننا وبينك خط التواء، لا خط استواء

،فالقريب منك والبعيد على السواء. يا قبر أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنك احتويت على أمة في رمة، وعلى عالم في واحد. فأتاح له الحوار مع ابن باديس في قبره من خلال الشخصيتين ذلك البعد الدرامي المحبوك، ووفر الكاتب لقارئه تنويع النبذة وبث الانفعال كما يستلزمه الموقف.

وقد بدا المشهد الموقف جامعا بين عناصر هذا النص في نوع المقامة خاصة بعدما أشبع بالشخصيتين الخياليتين اللتين أبدعهما خيال الكاتب، لتبليغ رأيه ورؤيته في انجاز ابن باديس الفكري والفراغ الذي أحسه الكاتب كبير يعسر أن يملأ ببساطة، فشكل في مقاطع حواراه ما يمكن حمله ممّا تمر به نفسه من أوجاع وطنية وأشواق إنسانية قوامها: الوفاء والحب، والإخلاص، والصدق، والثبات في الأقوال والأفعال.

فيأتي حواراه أحيانا ملتهبا متأججا، يحمل حرقه صاحب على صاحبه:
"هنتفا فيها بسكان المقابر عني

أَوْ ما استقلّلت بالسميع الواعي ما للمقابر لا تُجيب الداعي؟
وخصّنا القبر الذي تضمّن الواعي السميع، والواحد الذي بذّ الجميع،
فقولاً له عني :

يا قبر، عزّ على دفينك الصبر، وتعاصى كسرُ القلوب الحزينة على
من فيك أن يُقابل بالجبر، ورجع الجدال إلى الاعتدال بين القائلين بالاختيار
والقائلين بالجبر ."

"قولاً لصاحب القبر عني: يا ساكنَ الضريح، نجوى نضوٍ طليح،
صادرةً عن جفن قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يتأوُّبُهُ في كل لحظة خيالُك
وذكراك، فيحملان إليه على أجنحة الخيال من مسراك اللهب والريح، وتؤدي
عنهما شؤونه المنسرية، وشجونه الملهية، وعليهما شهادة التجريح .

إن من تركت وراءك، لم يحمّد الكرى فهل حمدت كراك؟ وهيهات، ما
عانِ كمستريح!"

ويأتي أحيانا هادئا متصبرا: "يا قبر، ما عهدنا قبلك رسماً، وارى شمساً
ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلماً دائراً، وتحبس كوكباً سائراً".
فيلاحظ الملاحظ أن حوارات الابراهيمى جاءت مرتبة ترتيباً انفعالياً
واضحاً لا يحس القارئ بإرباك فيه، ويحسّه مشدوداً إلى بعضه البعض دون
خلل. بانتقاء الحوارات المسجوعة الموجزة، وبتحريك الشخص في شيء من
الدرامية والتأثر أثناء تلقي الخطاب، وتحميلها عبء مسؤولية نقل الحوار
وتوصيله.

6- لغة المقامة: إن جننا إلى الحديث عن اللغة في المقامة فإننا نقف
على جزئيات كثيرة، أهمها الألفاظ والعبارات والأساليب، وعنصر البديع والبيان،
والاقتباس من القرآن الكريم .

واللغة "عنصر في التشكيل الفني للمقامة، تنبثق من ذاتها وتشكل كيانا
مستقلاً يشير ثم يرتد إلى ذاته، فالألفاظ في بناء الجملة والجملة في سياق الفقرة
في نموها وتكاملها تثب متحركة، نشطة"⁽⁶⁾ حاملة لأفكار الكاتب.

أما عن علاقة اللغة بالعمل الأدبي فهي بمثابة الروح للجسد، إذ لا
يمكن الفصل بينهما، لذا تعد عنصراً من عناصره المهمة في التعبير الفني، وقد
اعتبرها كثير من النقاد في عصرنا الحاضر وسيلة الأديب في التعبير
والإبداع فهي موسيقاه وهي ألوانه، وهي فكره، وهي المادة الخام التي سوى منه
كائناً خلقه الشاعر أو القاص أو المسرحي من ذاته، كائناً ذا صوت يحمل

⁶- إبراهيم السعافين، أصول المقامات، دار المناهل، بيروت - لبنان، 1987، ص 118.

صورة، وكما يحمل الحجر صورة نابضة لمثال بارع فكذلك اللغة في يد الشاعر أو الكاتب قادرة على ان تحمل صورة نابضة حية⁽⁷⁾.

أ- الألفاظ والعبارات: رغم أن الإبراهيمي معروف بالوضوح والابتعاد عن الغموض في الأجناس الأدبية الأخرى كالمقالة والخطابة التي غرضها إصلاح تويعوي، غير أنه في هذه المقامة قد لا يستغني القارئ الكريم عن اصطحاب أحد المعاجم إذا أراد قراءة هذه المقامة؛ لما فيها من كثرة الغريب وإحكام التركيب، كما لا يستغني عن الإلمام بأمهات الكتب في الأدب والدواوين الشعرية، والتواريخ، والعقائد؛ لما في تلك المقامة من كثرة التضمين، والبديع ونحو ذلك من الألوان البلاغية، والإشارات التاريخية وما جرى مجرى ذلك.

فيلاحظ القارئ بوضوح أن الإبراهيمي لم يتحرر من صفات الفخامة في الألفاظ والغرابة في الانتقاء والصعوبة في النطق، وهذا لمحاولة طبعه الرسالة التأبينية في طابع مقامي، مما جعلها لا تخلو من عبارات غريبة بألفاظ كثيرة من المعجم القديم، وهو معروف بحسن استعماله للمعجم القديم، غير أن مسؤوليته تجاه المقامة جعلته يحافظ قدر المستطاع على قلبها المتميز، كما كان على أيام الهمداني ذوالوظيفة التعليمية، ولا يخفى هاهنا تمكنه من نواصي اللغة وتحكمه في استعمالاتها كيف يشاء وثناء معجمه، فضلا عن الحاجة النفسية عند أدينا إلى اختيار ألفاظ غير مألوفة لاصطياد معانيه، وحمل آلامه وأحزانه على ابن باديس. ومن أمثلة ذلك: (لا تميم الغزر. العُر. المتضوع، والمنبعث الطية، المهريّة القود: الوديقة الصيخود. لذع الهواجر. شهري ناجر، دارج ونائل، التقويّف، العيّبة.....). وغيرها كثير.

⁷- حمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة، بيروت، ط1،

ومنذ القديم "غلبت المقامة اللفظ عن المعنى بداعي الاستجابة المنطقية للتلقي فهي تسعى للإثارة والتشويق ومحاولة السيطرة على وجدان المتلقي وادهاشه من خلال اللعب بالألفاظ وانتقائه حتى لا ينفلت عنها انتباهه ولا يتغير إلى غيرها اتجاهه"⁽⁸⁾.

ويعترف محمد الغسييري أنه "لو شُرحَت أَلْفَاظُ تلك المقامة، وعُزيت إشاراتُها- لبلغت صفحات عديدة".

فمعظم أَلْفَاظُه من المعجم القديم للغرض المقصود . وقد عرف عن الإبراهيمي سعة تكوينه وتوسيع مداركه، وصقل موهبته في "امتلاك ناصية اللغة العربية فكان خبيراً بأسرارها، ضالعا في أساليبها بارعا في فنونها وآدابها"⁽⁹⁾، فشحذها لتكون سلاحه المترجم لأفكاره.

واعتناء الإبراهيمي باللغة العربية سببه جلالته وشرفها، فكان في كل مرة يشير إلى فضلها على العلم والمدنية، فكانت لغة الدين والأدب والحضارة التي تمثل "ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها"⁽¹⁰⁾. فهو يحرص على البعد عن التقريرية الجافة البعيدة جدا عن الفنية المبتوثة في لآلى العربية.

⁸- السرد والظاهرة الدرامية، ط1، دراسة في التجليات الدرامية للسرد العربي القديم، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003 ص 237.

⁹- بوعلام بسايح، أعلام المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي بالسيف والقلم 1830-1954، الجزائر، 2007، ص272. وينظر: مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، السنة الخامسة عشرة، العدد 87، 1985، ص60.

¹⁰- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي، ج1، ص 74.

لهذا سما الإبراهيمي بلغته في المقامة إلى مستوى فني رفيع وجعلها موحية بأحاسيسه إزاء ما يؤلمه من واقع المسلمين بعد ابن باديس، إذ أن هذا الانتقاء يوحي إلينا بذوقه الرفيع وإحساسه العميق ووعيه بالكلمات وأبعادها، وتلك ميزة تدل على روح الأصالة وانعكاس مباشر لها فتنطبع في لغته وعمله الفني فلم يقع في الوصفية السطحية .

فحققت هذه المقامة هدفا من جانب آخر هو "إعادة الصفاء للغة العربية في ألفاظها وتعبيرها وصلقلها صقلا يعيد لها بيانها المشرق"⁽¹¹⁾، وبهذا يمكن القول أن الإبراهيمي قد حسن مقاله في مقامه.

وهو بهذا الاستعمال لا يهدف إلى التعقيد بقدر ما يرنو إلى التعريف باللغة العربية القادرة على حمل المرامي وصنع الأساليب المناسبة لمواقفها، فهو أسلوب فصيح منتقى متخير وهذا بفضل ثقافته الدينية والأدبية الواسعة، وإطلاعه على أساليب الكتابة العربية قديما وحديثا في الأدب والصحافة، فهو من سبيل السهل الممتنع القريب للذهن، الدقيق الدلالة الحامل للمعاني بقدر ألفاظه المنتقاة . ف" تشكل اللغة في أدب الإبراهيمي هو الخلية الحية لمقاييس درجة العمق الذي يرتفع إليها أدبه، ويلتقي عنده مفهوم اللغة مع مفهوم الأدب"⁽¹²⁾.

واللغة المستعملة عنده عميقة في ذاتها، عميقة الدلالات والتفسيرات لا من حيث المتانة والقوة فقط، ولكن من حيث المقصود والمفهوم الذي عمله معها⁽¹³⁾

¹¹ - الشهاب، الجزء الأول، المجلد الخامس عشر، فيفري 1939، ص11.

¹² - عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1830-1974، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع للطباعة، مصر، 1976م، ص88.

¹³ - جابر احمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1984، ص390.

وهكذا كان أسلوب الإبراهيمي متميز برصانته وإحكام بنائه وانتقاء ألفاظه الجزلة الفخمة، وحسن التأنق في صياغته فهو كما يصفه الاستاذ عبد المالك مرتاض "استمرار للأساليب الفحلة القديمة وتطور لتعابيرها وطرائقها في تدبيج القول وزخرفة الكلام، لذلك يجد فيه الباحث كثيرا مما يجديه الأساليب الفحلة القديمة من جزالة الألفاظ، ووضوح في المعاني وحرص على التأنق في الأسلوب ورغبة في رشه بالمحسنات اللفظية والمعنوية على اختلافها"⁽¹⁴⁾.

ولهذا عدّ أسلوب الإبراهيمي مدرسة قائمة بنفسها وشكل مذهباً فنياً في الجزائر للكتابة الأدبية. وهو ينجح في تطويع الفن المقامي للغة واذعانه لسحر اختياره واستراتيجية أدبه.

فهو يتميز "باختيار الألفاظ القوية والفخمة المعبرة عن شخصيته القوية فيضع الألفاظ في أماكن يفسرها السياق، إلى جانب حرصه على أن يكون في تعبيره ترابط لفظي وجرس صوتي يقصد إلى التأثير وال جذب وإبراز إمكانات اللغة العربية وتفوقها عن غيرها من اللغات في مجالات التعبير والتصوير والتأثير"⁽¹⁵⁾، ومن أمثلة ألفاظه وعباراته: (الآفاح، غيوث، سحائب، سواكب، سوافح من العبرات تتحل عزاليها، لوافح، الزخار، مغارس، متارس.....)

يتضح من هذا أن الإبراهيمي يضم اللفظ إلى أخيه بما يجانسه ويلاتمه، أما جرسها فالكلمات عند الإبراهيمي مثل "حبات العقد من الماس والياقوت والزمرد ومنها البراق والقاتم، وقد يكون للحبة في حد ذاتها، ولكنها تزداد بهجة وروعة إذا انتظمت مع غيرها من حبات العقد، وقد تكون الحبات

¹⁴ - عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1983، ص 336.

¹⁵ - أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، دار النهضة، مصر، القاهرة، ط4، ص188.

ضئيلة القيمة في ذاتها ولكنها تكتسب الرونق والروعة حين ينالها الانسجام وينتظمها حسن النسق⁽¹⁶⁾.

(سيرا - على اسم الله - في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسرة وضاح، وتخللاً الأحياء؛ فستجدان لاسم من تتنجعانه ذكراً ذائماً في الأفواه، وثناءً شائعاً على الشفاه، وأثراً أركى نماءً وأبقى بركةً على الأرض من أثر الغمام المنهل، فإذا مسكماً الملال أو غشى مطيماً الكلال فاحدوا بذكراه ينبعث النشاط، وينتشر الاغتباط، وتغنيا بها عن حمل الزاد، وملاء المزاد، وتأمنا غول الغوائل، من أفناء دراج ونائل.) فكما هو باد، وأنت تقرأ المقامة تجدها مقسمة إلى مقاطع حوارية وفقرات موجزة وصفية، متماسكة البناء، متتابعة المعنى، متكاملة الملامح، جميلة الوقع.

وهو يلون في التعبير ويخالف في الطول بين الجمل المسجوعة . فقد أثر الابراهيمي الجمل المتوسطة بين الطول والقصر "لأن العبارات الطويلة بطيئة التأثير للسامع، مجهدة في إلقائها، والعبارات القصيرة المفرطة في القصر متلاحقة مفاجئة مجهدة للسامع في تتبعها"⁽¹⁷⁾

لهذا جاءت جملة لا بالطويلة المجهدة ولا بالقصيرة جدا لمناسبة المعنى ونفسية المؤبين الحزينة: "وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادق الوعود، لا صواعق الرعود، لا تخلف ولا تميم، وسحائب من الرحمات تنهل سواكبها، وكتائب من المبشرات تزجي مواكبها، وسوافح من العبرات تنحل عزاليها، ولوافح من الزفرات تسابق أواخرها أواليها على الجذب الذي التأممت حاقته على العلم الجم والفضل العد، ووازي ترابيه جواهر الحجا والذكاء والعزم والجد، وطوى البحر الزخار في عدة أشبار" فهو يراوح بين الطول والقصر

¹⁶- إبراهيم السعافين، أصول المقامات، دار المناهل للطباعة، بيروت، 1987، ص 118.

¹⁷- نفسه.

حسب ما يقتضيه تمام المعنى وما تستسيغه نفس المتلقي، ويتطلبه الحوار المنطوي على الوصف للبطل ابن باديس. فالمعنى له قيمته كما للجملة موسيقاها وإيقاعها في التوصل إلى المعنى المراد، ثم تتلاحق الجمل بهذا النظام في تسارع مذهل ينم عن قدرة عجيبة في صنع الموقف الدرامي، الممزوج بالموقف النفسي عند الإبراهيمي.

ويرى السعافين أن "اللغة في المقامة تميل إلى الدرامية فاللغة تتعاقب مع الحدث والشخصية، تتوحد اللغة وتجاوز البطل ويحاورها فتختفي شخصيته الواضحة فيها وربما تتوحد معها وتظل تتنفس من خلالها، إن اللغة تمثل رؤية جديدة في النص المقامي لأنها تحمل طاقة حركية درامية لاتقف عند حدود إظهار القدرة اللغوية أو البلاغية⁽¹⁸⁾، وهذا ما نجح فيه الإبراهيمي إذ وراء لغته المسكوبة في حوارهِ إعلان عن حركة درامية يحسها القارئ هي الأنسب لفن المقامة.

ب- البديع: من أهم مقتضيات المقامة دون الأجناس النثرية الأخرى هو طلبها للبديع والتحسين في الأسلوب، وحاجتها للسجع الخفيف الذي يزيد من حس المتلقي دون أن يهدمه، ويظهر فكرة الكاتب دون أن يطمسها، فهي تعول في أسلوبها على السجع وتكاد تلتزمه التزاما تاما.

فيتواتر السجع والجناس بالدرجة الأولى صانعين موسيقى تأسر النفوس، "والموسيقى لغة العواطف والوجدان، ولنغماتها درجات في الشدة أو في الضعف، واللين أو القوة والسرعة والبطء، ونحو ذلك من الصفات التي تصحبها آثار وجدانية وألوان عاطفته من نشاط أو فتور"⁽¹⁹⁾.

¹⁸- إبراهيم السعافين، أصول المقامات، ص 118.

¹⁹- عبد العزيز عتيق، النقد الأدبي، ص 54.

وبدا الإبراهيمي رائداً في استعمال البديع بأنواعه وخاصة السجع فجاءت فواصله مدروسة، "فهو يخاطب صاحبيه بلغة راعى فيها سجعه الخفيف اللطيف، ورشاقة عبارته، رغم وجود بعض من غموض في كلمته التي لا تبقى قلقة كثيراً، في إطار الصورة المختارة "فبدت رشاقة اللغة عنده إذ يوظف الجمل التي تتدافع في عنفوان، ويسكنها التوتر الداخلي، ثم تنتهي المقامة بجمل رشيقة، ذات حركة متراخية ... (20). واستمسك الإبراهيمي بذلك السجع الخفيف اللطيف الذي نوع في موسيقاه، وجعل ألفاظه "تخرق وتجاوز الموسيقى الداخلية بما توفره من إمكانات الاختلاف والانسجام بإيقاعها المسجع، أو بجده أصدادها المعنوية التي تتسم في توثب اللغة، وفي انطلاقها شخصية ذات كيان مستقل يؤدي دوره في بنية النص ويحتفظ بحيويته التي يشير إليها ويستقل بها(21)، فجاءت أسجاعة أقرب إلى الطبع منه إلى التكلف والتصنع فتبدو نفسه على سجيتهما، وهو يتابع جملة، ووظف ما يليق بموقفه من جناسات وطباقات ومقابلات وموازنات .

ف نجد لوحة المقامة قد لونت تلوينا حسنا بهذه الأصناف (سلام يتنفس عنه الأقاحُ بإزهاره وإيراقه، ويتبسّم عنه الصباحُ بنوره وإشراقه). فيوازن هنا بين العبارتين في مساواة صانعا نغما خفيفا بنهايات ألفاظه(الآقاح، الصباح). (إزهاره، بنوره)، (إيراقه، إشراقه).

وفي (الروح...تروح...المشروح) حيث يجعل من الرأ المضمومة الممدودة والحاء الساكنة نهاية مناسبة للعبارات التي تحمل بكاء الشاعر. وفي الجنس (الوعود، الرعود)، وفي (مواكبها..سواكبها)، وفي (عبيره...منييره، والريحان...الرضوان.....) سجع زاد من أثر العبارة على النفس. وفي:

20- إبراهيم السعافين، أصول المقامات، ص118.

21- نفسه.

(ومدارس، ما مدارس؟ مَهْدَهَا للعلم والإصلاح مغارس، ونَصَبَهَا في نحور المبطلين حصوناً ومتارس، وشيّدَهَا للحق والفضيلة مرابطاً ومحارس.) حيث يجعل القارئ مشدوداً إلى هذه النهايات منتبهاً لها لما تحدثه في الذات من تأثير. وهكذا تتوالى الأمثلة دون أن يمل القارئ من تلقيها لحسن توظيفها حتى ختام المقامة.

ومن الطباقي نجد القليل في: (أواليها، وأواخرها) و(القريب. البعيد) (اكني، التصريح) (الأولين، الآخرين)... مما زاد من حصول المعنى وجماله. فمما يساعد على موسيقى الأسلوب انسجام الحروف وحلاوة جرسها، وظهور السجع غير المتكافئ الذي تتميز به المقامة وهذا ليس بدعا إذ له وقع حلو في الأذن، وسلطان على النفس " فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف المستحسن فأبي عيب فيه؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك" (22).

كما أن ائتلاف الكلمات وتناسب العبارات وتلاؤم الفقرات يضفي على الأسلوب نغمة عامة تستطيع إرضاء ذوق السامع أو القارئ، وهذا سبب رئيس في دفع الأديب إلى الاعتناء بجمال الأسلوب وموسيقى العبارة ويظهر ذلك بجلاء عند الإبراهيمي: (الخيال... الخبال، صفاء... وفاء، التكبير... نكير، القود صيخود، الهواجر... ناجر، صداها... مداها، رقراقه... مراقه...) إلى آخر المقامة.

فأسلوب السجع والدوران معه في المقامة إن كان بالجرعة المناسبة في التوظيف فإن ذلك يزيد النص حركية وينشط فيه الحياة ويرفع المعنى أكثر

22- ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، تح الشيخ حسن تميم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،

والفنية إلى الأجل، أما إن كان أسلوب السجع في تصنيع واستكراه فإنه مدعاة للنفور والاستهجان⁽²³⁾.

والمقصد الذي يبتغيه الأديب هو الحاصل بالمعنى المراد إيصاله إلى المخاطبين بدقة متناهية، وأيضا تجميل هذا النص بما يستوعبه من أساليب تدفع فيه الحركة وترسمه بأحسن ما يمكن أن يجمل به من التعابير والأساليب يناسب من الألفاظ الساحرة والخيال الممكن الحدوث والتصور، لأن المسائل في النثر لها جوهر العقل ومكمنه مقصدا أساسيا، ومن ثمة يأتي النص المقامي في ديباجة حسنة المطالع دقيقة البنية في العرض موصوفة النتائج في بنية الخواتم، وهذا مبتغى الكتابة الأدبية الفنية "فالكتابة الفنية تنجح إلى جمال العبارات وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية، ويدخلها أيضا شيء من خيال الشعر... لهذا تعتمد على التوضيح والإبانة... مع مراعاة الأناة وقواعد الإلقاء"⁽²⁴⁾.

ولا يعني الوضوح أن الكلام يأتي مبتذلا سوقيا لا يوافق بناء اللغة العربية ومقاصدها بل المقصود "أن يكون سهلا في قوة، وساميا في وضوح وسهولة، يفهمه أنصاف المتعلمين ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله"⁽²⁵⁾. لهذا جاء أسلوب الإبراهيمي مفعما بانتلاف الكلمات وتناسب العبارات وتنوع جرسها الموسيقي، حيث تخير لكلامه أسلوبا موسيقيا حسن الوقع في الآذان، فجاء أكثره مسجوعا كما نراه، وقد أدى ذلك إلى جرس موسيقي عام.

²³ - محمد العيد تاورثة، نثر محمد البشير الإبراهيمي في فترة 1939، 1925، رسالة ماجستير 1980، الجزائر، ص 620.

²⁴ - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دارالكتب العلمية للنشر والتوزيع 2007، ط1، ص 312.

²⁵ - مجلة الثقافة الجزائرية، مقال شكري فيصل، العدد 87، 1985، ص 198.

وربما كان مقصودا من الأديب لما تقتضيه سلطة المقامة في هذا الباب قصد جلب انتباه المتلقي لذا نلاحظ فيه بعض التعمل إلا انه لم يكن فيه استكراه أو تنافر أو تعقيد بل غلبت عليه نغمة موسيقية لها سلطانها على النفس، وهذا من دواعي المقامة ومقاصدها ،لأن ذلك يأسر القلوب ويغذي العقول ويبعث في النفس الرغبة في الاستزادة وتقبل الافكار .

فالسجع والجناس عند الابراهيمي غرضهما تبليغ الفكرة، وتناسق الفواصل المسجوعة هو ما يشكل لوحة فنية تكشف لنا عن إحساس وعواطف الأديب. وهناك من رأى أن "تفرد أسلوب الابراهيمي لا تأتيه من فصاحة المفردات والتراكيب التراثية أو الدينية، وإنما تكمن القوة الحقيقية لأسلوبه في حسن الربط بين المفردات ومعانيها وفي القدرة على توظيفها"⁽²⁶⁾.

"والمقابلة تزيد من حسن ورونق الكلام وتقوي الصلة بين الألفاظ والمعاني وتؤكد الأفكار وتوضحها، ذلك لأن الضد اوضح في الدلالة على المعنى من الشبه"⁽²⁷⁾. وهذا ما أجاده الابراهيمي بلا اكثار مستهجن.

ج-البيان: أما البيان فلا بد منه عند أديبنا، فاستعمال الابراهيمي للبيان العربي كان نابعا عن قدرته على التصوير وهي قدرة مخيلته ،لذلك لم يكن استعماله تقليدا للعصور الماضية التي أسيء استعمال البلاغة العربية فيها، إذ صارت وسيلة لتنمية الكلام وتزيينه لذاته من أجل الدقة في التعبير وعليه كان البيان العربي في أسلوب الابراهيمي " انعكاسا لموقف فكري أو حدث مادي وانفعال نفسي...ذلك هو المقياس الصادق للقيم الحقيقية"⁽²⁸⁾، فنجد على

²⁶- أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص178.

²⁷- عبد الله الركبي، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص147.

²⁸- أحمد طالب الابراهيمي، آثار محمد البشير الابراهيمي، ج2، ص 427.

سبيل التمثيل لا الحصر التشبيه في قوله: وكان صوته الجهير كصوت الحق الشهير مدوياً في جنباتها مسموعاً
والكناية في قوله: ولئن سلبته الحلية الفانية فقد ألبسته من مآثر خلل التاريخ الضافية.

والاستعارة المكنية في قوله: ويتبسم عنه الصباح، والتصريحية في قوله وطوى البحر الزخار في عدة أشبار
ومما سبق فقد جمع أسلوب الشيخ الابراهيمي " بين العناية بالصياغة وبين التعبير عن العاطفة والشعور المتقدم، كما يجمع بين الفكرة الاصلاحية في مضمونه، وبين الجمال الأدبي في تعبيره، كما ويعنى بالصور البيانية بشكل جلي... فاللغة عنده ليست وسيلة فقط، ولكنها هدف أيضاً، ومن ثم فإن أسلوبه يمتاز بهذه الصياغة الخاصة التي تراعي التوليد في المعاني والصيغ، وتهتم بالاستعارة اهتماماً شديداً"⁽²⁹⁾.

وفي الأخير أقول أن المتمعن في لغة الابراهيمي بالمقامة يجد سماوا مهيبا في اللغة، قد غلبت عليها الرشاقة والدلال، يسارع القراء إلى التفنن في ملازمة نصوصه وفهمها جيدا، بل لا يمكن فهمها الا بإعمال فكر وتدقيق لغوي متخصص، وذائقة أدبية عالية.

7- السمة الخطابية في المقامة: للوهلة الأولى يحس القارئ بأنه يتلقى خطبة، فسمات الأسلوب الخطابي تطل على القارئ من أول كلمة في هذا المطلع ولعل البشير عمد إلى ذلك حتى يلائم ما بين ادواته التعبيرية وبين الجو النفسي الذي يسود المقامة ويلفها، ورغم أن الابراهيمي صنع طرفا لتلقي الحوار فإن هذا الطرف لا يشارك في الحوار وإنما يتلقاه، وبهذا سادت نداءاته لوحة

²⁹- عبد المالك بومنجل، النثر الفني عند البشير الابراهيمي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع،

المقامة وتكررت كثيرا حاملة مكنونات نفسه وصبغت بصبغة الخطابة : يا قبر يا ساكن الضريح، كما تكررت الأوامر: (سيراً، اتياً، بكراً، انقلاً، قولاً، خصاً...) فأكثر النداء ليكون على اتصال مباشر بأذان السامعين (الشعب)، وأراد ان يطوع المقامة لحمل أحزانه، وإشراك القارئ في مسؤولية السير وراء ابن باديس. ولأن من صفات أسلوب الخطابة أنه يتميز بجرس موسيقي رنان، ليكون خفيفاً على اللسان، حسن الوقع في الأذان، وذلك بانسجام حروفه وعذوبة جرسها الموسيقي، وائتلاف الكلمات وتلاؤم الفقر وإيقاعها.. فأتاحت له هذه النبذة فضاء للتعبير عما في خاطره، والتأثير في متلقيه . وبذلك تتحقق الصفة الفنية لأسلوبه، ويأتي جميلاً إيجابياً يعبر عن الحالة النفسية التي تصدر عن خياله وذوقه وصدق عاطفته حيث يزج بك في قالب القص في مسحة خطابية، ونبذة حوارية صارخة في رزانة بادية ،وموضوع محدد.

8- الإصلاح : وإن كانت مقامة الإبراهيمي في ظاهرها تأبينية تحكي حزن الإبراهيمي على إمام الجزائريين وقائد جمعية العلماء المسلمين، فإنها مبطنة بأفكار إصلاحية عميقة، تحكي إنجازات العلامة وتحت على الحفاظ على ما صنع ومواصلة النهضة ورائه والتأثر بما بدأ واتباع طريقه، فالنزعة الإصلاحية للخروج من التخلف، ونبذ التقليد والجمود، بدت قضية جوهرية مع استماتة عند الإبراهيمي في التأكيد على ضرورة الاحتماء بالهوية الوطنية، من خلال التشبث برمزياتها (اللغة العربية) و(الإسلام) اللذين ينبغي ان ينهضا أيضا بدوريهما عبر كل الوسائل، بمعنى انها تسعى إلى " إصلاح العقول التي أفسدها الضلال في الدين، وفي تصفية النفوس التي كدرتها الخرافات، وإعدادها لفهم حقائق الدين والدنيا، وغرس القابليات الصحيحة فيها للخير، ودكّ الحصون

التي كانت مانعة لنا من الاتصال بالجيل الناشئ، حتى نستطيع تعليمه الحق، وتربيته على الحق»⁽³⁰⁾.

وقد كتب الابراهيمي مقامته لمواصلة الغرض الاصلاحى الذى بدأه، حيث أراد بها استنهاض العزائم ونشر الوعي القومى، الغائب لدى الشعوب العربية، جراء سياسة الاستعمار، فكانت مقامته شكلا تتسم بشكل المقامة الخارجى، أما مضمونها فكان جادا يحمل رسالة إصلاحية مفادها أنه " يحارب عوامل الفساد والجهل التى يبذرهما الاستعمار المادى المعتمد على الحديد والنار والمتمثل فى الاستعمار الفرنسى، والاستعمار الروحى المعتمد على التدجيل والمتاجرة باسم الدين، والمتمثل فى مشائخ الطرق ذوى النفوذ الكبير فى أوساط الشعب الجزائرى وبدأت سعيها بحملة جارفة على البدع والخرافات والضلال فى كل مكان"⁽³¹⁾.

ويتضح ذلك من بداية المقامة وتعداد مناقب الشيخ ابن باديس فوحدها توحى بغرس صفاته فى النشء، والحث عليها ويبدو جليا أكثر فى خاتمته: (وعزاء لك فىمن كنت تستكفيهم، وتضع ثقنك الغالية فىهم، من إخوانك العلماء العاملين، الصالحين المصلحين. فهم - كعهديك بهم - رعاة لعهد الله فى دينه، وفى كتابه، وفى سنة نبيه، دعاة إلى الحق بين عباده، يلقون فى سبيله القذى كحلا، والأذى من العسل أطفى.

وسلام عليك فى الأولين، وسلام عليك فى الآخرين، وسلام عليك فى العلماء العاملين، وسلام عليك فى الحكماء الربانيين، وسلام عليك إلى يوم الدين).

³⁰- محمد محى الدين، ثقافة الإبراهيمى وأثرها فى أسلوبه، (عيون البصائر أنموذجا)، رسالة

ماجستير جامعة تلمسان، 2007، ص 78.

³¹- نفسه، ص 48.

فما يعزّي الإبراهيمي هو وجود رجال مصلحين يحملون الراية بعد ابن باديس، ويفنون بالعهد ويواصلون المسيرة.

9- الاقتباس من القرآن الكريم: لا نقوتنا الإشارة إلى ما غدى به الإبراهيمي مقامته من آيات الذكر الحكيم، حيث أنه لطالما استلهمت كتاباته عناصرها من العقيدة الإسلامية التي امتزجت بها امتزاجا كبيرا فأشقرت ألفاظها، إذ لا تخلو المقامة من حضور الأسلوب القرآني الذي يزيد من وقار المشهد وبلاغة العبارة "فمن الروافد التي غدت أسلوب الإبراهيمي يتجلى ذلك في أشكال مختلفة أشدها ظهورا الاستشهاد منه أو الاقتباس منه، وتدرج في الخفاء لتأخذ شكلا ومفاهيم وقيما أو صيغا وعبارات وألفاظ أو نغمات وإيقاعا حيث يتجلى فيها روح القرآن ساريا يشعر به القارئ ويتفاعل معه، وكثير من النصوص تتداخل أحيانا مع اشارات تاريخية أو أدبية أو لغوية...حتى ليجد الدارس صعوبة في الفصل بينها لأنها أصبحت في أسلوب الكاتب تشكل نسيجا متشابك الخيوط أو قطعة ممزوجة الألوان"⁽³²⁾. والمقامة التأبينية خير مكان لبث روحانية القرآن والتداوي بها.

ومنها قوله (. وصلوات من الله ظهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان)، وهي من قوله تعالى في سورة الواقعة آية 88 و 89. "فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٍ (89)" وقوله (وسلام من أصحاب اليمين) من قوله تعالى في سورة الواقعة "وأما إن كان من أصحاب اليمين (90) فسلام لك من أصحاب اليمين (91)"، وقوله: (اتيا بالعدوة الدنيا .) مقتبس من قوله تعالى في سورة الانفال: "إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى"، اما قوله: (تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء، فنبذتهم بالعراء) فهو

³²- حسين بن مشيش، اثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة،

مأخوذ من قوله تعالى: " فنبذناه في العراء وهو سقيم" في سورة الصافات آية 139- 146، وقوله (مما قدّمت يداك من باقيات صالحات) من قوله تعالى: "والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخَيْرٌ مَرَدّاً" من سورة الكهف آية 46. وقوله: (وسلام عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين)، من قول الله تعالى في سورة الواقعة آية 13,14 "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ(14)". وغيرها من الاستعمالات القرآنية المبثوثة في المقامة.

وكان السعي في التعامل مع النص القرآني و"الاقتباس منه هو زرع الفضائل الأخلاقية وتأكيدهما، وهذا راجع إلى الثقافة الدينية التي تشبع بها أدياب جمعية العلماء المسلمين ونشأوا في محاضنها، فتركت الأثر البليغ في قرائحهم وتعاملهم مع اللغة إضافة إلى احتكاكهم بحركة زعماء الاصلاح في العالم الاسلامي التي اتخذت القرآن الكريم دستوراً ونبراساً بيني على أسسه منهاجها الاصلاحية الهادفة إلى العودة بالأمة إلى منابع ديننا الحنيف"⁽³³⁾.

فمن مظاهر تأثر كتاب جمعية العلماء المسلمين بالقرآن الكريم اقتباسهم لجمل بأكملها من القرآن لكونها "تفي بالغرض النفسي المرغوب في الكشف عنه وفي بعض الاحيان يكون ذلك الاقتباس بسبب الاعجاب بذلك النسيج القرآني، ومحاولة محاكاته في أسلوبه، لعل ذلك يكون عاملاً مساعداً للإفضاء بما يمكن في صدورهم"⁽³⁴⁾، وهذا يبعث في المتلقي روح الاستجابة لأمر الله والعمل من أجل تغيير الوضع الذي تحياه الأمة، فأشرقت ألفاظه وجاءت تراكيبه اللغوية معبرة تعبيراً يتناسب وأفكار الدين.

³³ - محمد محي الدين، ثقافة الابراهيمية وأثرها في أسلوبه، ص49.

³⁴ - حسين بن مشيش: أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث 1925-1962 رسالة دكتوراه في

الأدب العربي الحديث كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة باتنة 2007-2008، ص136.

"قتصر مع الموضوع انصهارا وتندمج في إطاره بلا نبو ولا خلل... مما يجعل من الصعوبة بمكان -أحيانا- أن ينتبه إليها من ليس له الماما بأساليب القران الكريم وبيانه، فعندما يتطرق الابراهيمى إلى موضوع له صلة بالمقدسات الاسلامية والتاريخ الاسلامى وما إلى ذلك من القضايا نجد أسلوبه يتدفق ممزوجا ومصبوغا بصبغة دينية للقران الكريم فيها حضور كبير"⁽³⁵⁾.

والقارئ بإمعان لما جاء في قول الأديب يلاحظ أن أفكاره المطروحة تتسم بالجدية والعمق في معالجة الواقع الاجتماعى الذى تعيشه الأمة، إلا أنه تخير لها أسلوبا واضحا مناسبا صب فيه أفكاره، وليس بدعا أن يكون العمق في طرح الأفكار والوضوح في الأسلوب لديه، هذه خاصية تتم على مدى تمكنه من ناصية اللغة وأساليبها، وحسن استعماله لآلياتها في التعبير عن المقاصد، فجاءت المفردات سهلة مألوفة والتراكيب انسيابية معبرة، والمعاني دالة دقيقة في بناء أسلوبه وهذه ميزة يشترك فيها كثير من خطباء الإصلاح في الجزائر. وجمال الأسلوب صفة لازمة له وبخاصة في الأعمال الأدبية التي لا غنى لها عنه، فالأديب المبدع "يدرك ما في المعاني من عمق وما يتصل بها من أسرار جميلة إدراكا رائعا"⁽³⁶⁾.

خاتمة :

تبقى هذه المقامة أحد النماذج الجيدة في النثر الجزائرى الحديث، ومن النماذج التي تعبر عن شخصية الابراهيمى كما تعطي فكرة عن ابداعه بهذا الأسلوب الذى جرى فيه بنجاح مواطن المقري صاحب نفح الطيب في

³⁵- محمد محى الدين، ثقافة البشير الإبراهيمى وأثرها في أسلوبه، ص 49.

³⁶- أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الادبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1990، ص 199.

المبدعين الأولين. فأزاح الإبراهيمي التقليد الذي قبع على صفحة الأدب وخاصة المقامة فأساء إلى وجهها وتقه مواضيعها وقبحها بالبهرجة والمغالاة . وقد حملت مقامة الابراهيمى كل ما للمقامة من طاقة إبداعية سردية، فنية أدبية، لحمل رؤيته وإعطاء ابن باديس مكانته وإبراز إنجازاته، فبدت عناصر المقامة في نسجها براويها وبطلها الذي هو ابن باديس رحمه الله، فلم يعد بطلا تقليديا كما كان عند الهمذاني، حكى عنه الإبراهيمي وعن إنجازاته ووصف عواطفه المتألّمة لفقده، وحمل الحوار بدرامية مؤثرة تارة مباشرة مع قبر الفقيد، وتارة إسنادا للشخصيتين الخياليتين، وكانت لغة الإبراهيمي تتساب انسيابا موسيقيا يطيب للنفس بغير ملل، وذلك للطف أسجاعه وخفتها، وتأثير بلاغته بصوره ومجازاته، ورغم أن ديدين المقامة تأبين ورتاء إلا أن بعدها إصلاحى، يلح على المشي حذو العلماء، واقتفاء آثارهم، والعمل بما تركوه لإكمال رسالة إصلاح المجتمع الذي قبع في وطأة التجهيل أزمانا طويلة. وتبقى مقامة الإبراهيمي أحد النماذج الجيدة في النثر الجزائري الحديث.

ورغم أن المقامة لم تتوقف عبر العصور بغض النظر عن مستواها الفني واللغوي فإنها عادت مع الإبراهيمي في ثوب من الوقار وان كان مقلاً منها، فقد رأى الإبراهيمي ركوبه المقامة دون غيرها كالخطبة والرسالة او المقالة لما لها من سمة القص وفسحة الحوار واستيعاب الافكار وحملا للغة بطريقة أخرى ساحرة يندمج فيها غريب اللفظ مع مألوفة، وما لها من قدرة على اشراك القارئ في الجو النفسي والهدف الاصلاحى الذي يريده الابراهيمى. وكان هو إمامَ العصر بلا منازع في هذه الطريقة البديعة التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصنعة، وملك أزمّة اللغة والغريب.

خلاصة ونتائج: بعد هذه النظرة الاستقرائية لمقامة الإبراهيمي نستنتج فيها ما يلي:

1. براعة الاستهلال وحسن الطرح.
2. ملامح البطل تجسّدت بمواقفه البطولية في نشر العلم والحفاظ على أركان الهوية الوطنية الجزائرية العربية المسلمة لا بخوارقه وأسفاره كما هو معتاد.
3. الخطابية التي تعتمد النداء والامر من اجل اشراك القارئ وتحسيسه بالموضوع ومسئوليته تجاهه.
4. جعل من المقامة منبرا إصلاحيا رغم أنها تبدو في الظاهر تعبيراً عن تجربة تأبينية خاصة لفقد الرفيق والصديق .
5. تميزت لغة المقامة بالمثانة واختيار اللفظ الفخم البالغ من الفصاحة والبلاغة مبلغاً، والسجع الخفيف الرشيق، مع ترتيب الافكار، وإحكام النسج، وتوظيف الأسلوب القرآني في المكان المناسب .
6. التنامي الدرامي مع التكرار، والتوسط في العبارات بين الطول والقصر في ميزان متكافئ يناسب نفس الكاتب ومتلقيه.
7. خرج الإبراهيمي بفن المقامة من فتورها الفني إلى الإبداعية البلاغية، التي تزوج بين جمال المبنى وحبكه وعمق المعنى وتأثيره، بلغة جعلت الصنعة واحة لها بغير إثقال. فنحا بالمقامة منحى متميزاً وبث فيها روحاً من الابداع، وأعطاه اشعاعاً آخر من التأثير في القارئ فيأسر وجدانه ويبهـر ذاته ويحقق له الغرض المطلوب من التدوق الفني والفائدة الفكرية.
8. أثر الإبراهيمي ركوب المقامة لما فيها من أفق للقص والحوار، وقدرة على استيعاب أي موضوع، وفضّلها لما فيها من استخراج لصدقات اللغة الكريمة ونوادرها الساحرة .

9. لا تتوقف المقامة في فترة وتمحي، وذلك لوجود حاجة نفسية لها، فهناك مطلب نفسي اجتماعي لمثل هذا الجنس الحكائي المسجوع المحاط بالطرفة والمغامرة والتهكم، فلطالما استدعت الكتاب للتعبير في إطارها.
10. من أسرار جمال المقامة ذلك التواتر بين الضد وضده، وبين المرادف ومرادفه وبين اللفظ وجنيسه عن سابق إصرار وتحضير متعارف عليه قبلا بين الملقى (المقامي) والمتلقى (الجمهور)، وانتهاء الفواصل بذات الحرف صانعة موسيقى تزيد المتلقي تشويقا وشدا للموضوع، ولولا ذلك لبهت المعنى وخبأ التأثير، وتلاشى التغيير الذي يميزها بملاحها التي لا يأتي فن بها (فلا هي قصيدة كُلاً، ولا نثر كُلاً، ولا قصيدة نثر... إنها مقامة فقط).
11. لقد غابت المقامة اللفظ عن المعنى بداعي الاستجابة المنطقية للتلقي فهي تسعى للإثارة والتشويق ومحاولة السيطرة على وجدان المتلقي وادهاشه من خلال اللعب بالألفاظ وانتقائها حتى لا ينفلت عنها انتباهه ولا يتغير إلى غيرها اتجاهه
12. خروج جزئية (الكدية)، ودخول رموز أخرى وعلامات مكثفة تستلهم القارئ. فيغيب الاستجداء ويتم تعويضه بالدعاء و إظهار الالم والحرص على الحفاظ على المسار واتباع قانون (لا إفراط ولا تفريط).
13. غياب السخرية، وتعويضها بالحس البكائي التأبيني الجاد.
14. النهائية كانت رسالة إصلاحية ودعوة مباشرة لحمل اللواء ومواصلة المسيرة، حيث اتخذ الإبراهيمي من الفكر الإصلاحى لواء له في كل الأجناس التي كتب فيها، وبدا سائدا في المقامة، وإن بدا للوهلة الأولى أنها تعبير على حرقة الفقد لرفيق الدرب، فرسائله المضمنة فيها واضحة وتصل للقارئ ببسر، وهي العمل الدائب المتواصل من أجل النجاة بالمجتمع من دسائس الجهل و غمرة الفساد.